حديث ابن الغافل

بقلم: أميمة عز الدين
مصر

في غفلة من مراقبة الكاردينال المحكمة تسللت الذكريات تصارعني مرة أخرى ، تتأجج بتلافيف مخي ، تعيدني إلى زمن بني الأحمر وآخر ملوكهم - أبو محمد الصغير - ذاك الملك الذي استطاع بمهارة - دون قصد - أن يُسلم غرناطة للأسبان ولم يزده البكاء على ملكه الضائع المندثر إلا ضعفاً وشحوباً وهزيمة .

هالني وجهي في المرآة ، لقد أصبح ممتقعاً ، ظل مراوغاً لنيافة الكاردينال الذي يجوب بنظراته الثاقبة خباياي بحثاً عن أثر لإيمان قديم وتحقق من ادعائي بانتسابي البعيد إليهم .

تواريت - رغماً عني - وراء عباءة الكاردينال وتمسحت بمسوحه السوداء وتلفظ لساني -لا قلبي- بأن أحد أجدادي كان نصرانياً صالحاً لطالما حمل الصليب ودق أجراس الكنائس في بلدته منذ زمن بعيد .

ورغم كذبي وتظاهري المتقن بأني أبحث عن مسيحيتي الغائبة وقبولي الزواج " بقريبة الكاردينال " العانس كريهة الرائحة وتسميتي بـ " ألفونسو " بدلاً من " محمد ابن الغافل " ، كل هذا جعلني - كل ليلة - أجثو على ركبتي أتضرع لله ذليلاً خاشعاً أن يقبل توبتي ويغفر لي زلات لساني ، فما زال قلبي يلهج بالشهادتين ويسبح بحمده .

كانت محاكم التفتيش تملأ أرجاء غرناطة ، تجوبها بحثاً عن المسلمين الأبرار وتخيرهم بين الموت أو التنصير ، ومن يرض بالموت يذقه ببطء شديد ، وتطول عملية التعذيب حتى يصبح الموت أمنية جميلة !

ورغم هذا فإن ثلة من المسلمين أصرت على إسلامها ، ورابطت جهاداً ولم يغير التعذيب ونكاله من أمرهم وثباتهم شيئاً ، بل صاروا أكثر نورانية وشفافية .

أما القلة الذين هم على شاكلتي ممن انضووا تحت لواء الكاردينال فإنهم لم يسلموا أيضاً من شكوك جنود الكاردينال المنتشرين كالطاعون حتى يتأكدوا من ولا ئنا الكامل لنيافة الكاردينال وحاشيته ، خاصة بعد أن جعلته الملكة " إيزابيلا " مفتشاً كبيراً بمحاكم التفتيش وصار رئيسها ، لذلك قام بدوره على أكمل وجه حين قام بتعذيب الشيخ " الزبيري " حتى أشاع في وقاحة يشوبها الزهو :

– إن " الزبيري" ذلك الرجل الصالح قد رأى حلماً يدعوه لدخول المسيحية وحدث ذلك قبل أن يرفع إلى السماء !! لذلك فهو يأمر مريديه وأتباعه أن يتبعوا دينه الجديد حتى يستطيعوا أن يحلقوا في سماوات المجد ويستمتعوا بالراحة الأبدية كما استمتع هو !!

لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء حين وضعت زوجتي الأسبانية القميئة طفلاً كاللؤلؤ المنثور ، تخاله قبساً من نور الإسلام – دين الفطرة – تراقبني العيون وأنا أحمله وأرسم عليه – رغماً عني – شارة الصليب في رعشة وخوف ، يتمتم قلبي ببعض الآيات القرآنية الراسخة بقلبي ، أود لو ناديت بالأذان في أذنيه وأضمه إلى صدري لأقول له :

– أنت مسلم من سليل أسرة عريقة في إسلامها ، لا تغرنّك أمك الأسبانية وقريبها الكاردينال ، كن قوياً مثل " الزبيري " الذي استشهد في سبيل الله ، ولا تكن كأبيك ضعيفاً مهزوزاً ، تذروه الرياح ، لا يملك إلا الحديث إلى نفسه في صمت .

نظرت إلى السماء الصافية بعد أن حفظت غرات الشهور من التقويم القديم الذي أحرقه الكاردينال مع آلاف الكتب ونسخ القرآن ، واكتشفت أن الليلة هي ليلة عيد الفطر .

أصخت السمع للتكبيرات المختلطة بالدعوات والدموع والتسبيحات الخاشعة ، شعرت بجسدي يهتز هزاً عنيفاً وتمنيت لو أفقت من غيبوبتي وأعلنت توبتي عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وأنظر لولدي فأشفق على نفسي وعليه ، فربما يأخذونه مني وينفونه بعيداً عن قلبي ، وفي النهاية يعذبونني عذاباً شديداً أو يتركونني لسباع البرية الجائعة تنهش جسدي .

خاطرت بحياتي الفارغة وأخذت ولدي قبيل الفجر وأمه تغط في نوم عميق ، وتسللت إلى حي " البيازين " الذي صمد طويلاً أمام محاكم التفتيش ، تسللت إلى أذني الكلمات العربية الرائقة ، هزني الشوق إلى سماع آي الذكر الحكيم وترتيله من أحد الشيوخ .

أحمل ولدي إلى البقية الباقية من المسلمين ، أسلم إليهم طفلي أتوسل إليهم أن يتكفلوه مسلماً طاهراً نقياً . أبكي، بل أنتحب ويعلو نشيجي بين أيديهم التي تمتد في سلام تمسح ألمي وتضمد جرحي رغم أني مارق مرتد في نظر الجميع .

يعلو صوت القرآن مرطباً قلبي وسمعي وبصري ويصيح أحدهم :

– اتركه لنا ، فنحن أحق بطفلك منك يا "ألفونسو" أقصد يا محمد يا ابن الغافل .

يقول شيخ وقور كأنه " الزبيري " :

– لا شيء أعظم مصيبة من مصيبة المرء في دينه يا ولدي ، تعال واعتصم معنا وانتظر أمر الله مثلنا إما النجاة وإما الموت في سبيل الله .

أشفقوا عليّ جميعاً وقدموا لي بعض اللحم الحلال والتمر المخلوط باللبن الدافئ ، ورجوني كثيراً أن أبقى بينهم حتى جاءني صوت كأنه بعيد لا أعرف مصدره :

– اتركوه يذهب بولده حتى لا نجزر كالخراف كما حدث لعشيرتنا الأقربين منذ قريب ، لكن دعونا الآن نختن ولده ونتركه يذهب بعدها.

انسحبت خائباً حسيراً ، فرحاً بولدي المسلم ، ولم يراودني خاطر انكشاف أمري لحظة واحدة إلا عندما وطأت قدماي أرض القصر وفوجئت بالكاردينال وزوجتي يحملقان فيّ بريبة ، انتزعا الطفل مني بقوة وكشفا الغطاء الملوث بدم الختان في عنف، وصفعني الكاردينال على وجهي ، وبصقت زوجتي عليّ ،وجنود الكاردينال تسحبني على وجهي وصوت الكاردينال يدويّ ، يخرق صمت الموتى – أمثالي – :

– ضعوه في الزيت المغلي أولاً قبل أن يتأرجح جسده في الهواء ■